جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم اللغة العربية

المرحلة الثالثة
المادة: نقد قديم عنوان المحاضرة: النقد الادبي القديم والحديث
اسم التدريسية: راوية عبدالله محمد

المحاضرة السادسة

لما جاء الإسلام ، ونزل القرآن الكريم ، وظل الشعر الإسلامي كالشعر الجاهلي Øجاً ومعنى ، وجاء العصر الأموي : فأهتم الرواة بالندوين وجمع آثار السلف ، فكانت أشعار الجاهليين والإسلاميين هم مثلهم الأعلى، كما كانت مصادرØ هاماً للاستشهاد والمفردات والتراكيب اللغوية ثم جاء العصر العباسي ، فازدهرت الحضارة ونوطدت الصلات بين العرب وبين العرب وبين الأمم التي دخلت الإسلام ، وسائر الشعر- كغيره من فنون القول النطور الثقافي والسياسي والاجتماعي للدولة الجديدة ، فأختلف النقاد والرواة حول الشعر العر ، وانقسموا إلى فريقين : فريق يدعو إلى القديم وينمسك به ويحارب النجديد ، وينمثل هذا الفريق في رواة الشعر وعلماء العربية ، وفريق ينزع إلى النجديد ، محاولاً النحلل من روابط النهج القديم ، لينكيف مع الحياة الجديدة ، وينمثل هذا الفريق في الشعراء الذين رفضوا القديم وثاروا على Øجه ، واصطدموا بالرواة ، وهم الفئة المهيمنة إذ ذاك على أذواق الناس وفهمهم لطبيعة الشعر العر ."[1]

ويمثل فريق الرواة ابن العر الذي يروي عنه أنه قال :" إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أ نواس وغيره- مثل الريحان يشم يوماً ويذوي فيرمى به- وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركنه ازداد طيباً.[2]

ويبدو أن ابن الأعرا لم يكن يحب شعر الشعراء المحدثين – وخاصة شعر أ تمام ، يقول الصولي: حدثني أبو عمر بن أ الحسن الطوسي ، قال :"وجه أ ابن الأعرا لأقراء عليه أشعارØ ، كهنت معجباً بشعر أ تمام ، فقرأت عليه من أشعار هذيل ، ثم قرأت أرجوزة أ تمام على اØا لبعض شعراء هذيل :

وعاذل عدلنه في عذله *** نظن أ جاهل من جهله .

حتى أتممنها فقال : أكتب لي هذه ، فكتبنها له ، ثم قلت أحسنة هي ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها ! إØا لأ تمام ، فقال خرق خرق!"[3]

يتضح مما سبق أن تعصب ابن الأعرا، وغيره من اللغويين والرواة لم يكن نابعاً من نقده لشعر أ تمام، وذكره لعيوبه ، وإنماكان نابعاً من كرههنه لمذهبه الشعري ، فأبن الأعرا لم يفضل الشعر القديم على شعر المحدثين لأسباب فنية تكشف عن سر جودنه وخصائصه الفنية ، وإنما فضله Zرد السبق في الزمن.[1]

ويرى الأستاذ طه أحمد إبراهيم أن الشعراء المحدثين حاولوا التجديد في الحدود التي رسمها القدماء ، واضطروا أن يبتكروا ضمن هذه الحدود فتعارضوا معهم واصطدموا Øم فبدلا من استهلال القصائد بالبكاء على الأطلال وذكر الحبيبة والديار، أراد أبو نواس أن يستهل مدائحه بوصف الخمر ومجالس الشراب ، ومال غيره إلى استهلال قصائده بوصف القصور والرياض ، وذكر الرخاء والنعيم."[2]

ويرى محمد مندور أن أبا نواس حافظ على الهياكل القديمة للقصيدة العربية ، مستبدلاً دباجة بأخرى ، يضاف إلى ذلك أن دعوته إلى التجديد كانت مشوبة بروح الشعوبية والغض من شأن العرب وتقليدهم."[3]

كما أنه لم "يساير مذهبه ، وإنما كان يعود في مدائحه إلى مذاهب القدماء ترضية لممدوحيه وضماناً لنوالهم."[4]

الواقع أن تجديد أ نواس لم يكن يقتصر على استبدال وصف الأطلال بوصف الخمر في مطلع القصائد، وإنما تجلى في خروجه عن عمود الشعر في ألفاظه ومعانيه وأوزانه ، وخاصة في قصائده التي كان ينطلق فيها من سجيته وطابعه الفني دون حدود ترهقه او قيود تثقله .

وجاء أبو تمام فأثار ثائرة النقاد والرواة بمذهبه الداعي إلى الخروج عن عمود الشعر من ناحية الصياغة والنماس البديع .

وقد أنقسم النقاد في دراسة شعر أ تمام إلى قسمين : ٱلسم يرى في شعره مثلاً أعلى في اللفظ والمعنى على حد سواء، وقسم لا يرى في مذهبه الشعري إلا فساداً لصياغته ومعانيه ، ثم جاء البحتري ، وتألق شاعرا "ذا موهبة حصبة تتسع لجوانب الحياة في عصره ، ويتخذ في الشعر مذهباً مغايراً لمذهب أ تمام."[5]

وقد أتخذ خصوم أ تمام من مذهب البحتري الشعري مثلاً أعلى ، فأخذوا يدافعون به عن مذهبهم الشعري ، ويكشفون به ما يعتبروه زيغاً من أ تمام عن جادة الصواب في هذا الفن ، لهذا ألف كثير من النقاد كتباً ومصنفات حول الخصومة الذي دارت بين مذهب أ تمام وبين مذهب البحتري ، ونذكر من هذه الكتب

(أخبار أبي تمام) ، و(أخبار البحتري) لأبي بكر محمد بن يحي الصولي ، وكتاب (الموازنة بين شعر أبي تمام البحتري) لأبي الحسن بن بشير الآمدي ، وغيرها من كتب النقد.

وقد أهتم النقاد المغاربة بقضية الثابت الجديد ، أو القدماء والمحدثين ، ودروسها في مؤلفاتهم النقدية ، ونذكر من النقاد المغاربة ، أبا إسحاق الحصري ومحمد بن شرق القيرواني ، وأبن رشيق القيرواني .

لم يفرد أبو إسحاق الحصري باباً خاصاً في كتابه لقضية القديم والجديد ، وإنما عرض لها بصورة عابرة، ومن أمثلة ذلك ما رواه عن مونف أبي عبد الله محمد بن بن زياد الاعرابي من شعر أب نواس ، بقول الحصري ، روى أبو هفان قال : كان أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي يطعن على أبي نواس ، ويعيب شعره ، ويضعفه ، ويسئلبنه، فجمعه مع بعض الرواة شعر أبي نواس مجلس الشيخ لايعرفه ، فقال له صاحبه أبي نواس : أتعرف اعزك الله ، أحسن من هذا؟ وانشده : (صعبة كر الطرف...) الأبيات ، فقال : لا والله ، فلمن هو؟ قال للذي يقول:[1]

كعب نسافوا على الاكوار بينهم *** كأس الكرى فانتشى المستي والساني .

كأن أرؤسهم والنوم وضعها *** على المناكب لم تخلق بأعناق .

ساروا فلم يقطعوا عقداً لرحله *** حتى أتا خو إليكم قبل إشراف.

من كل حائلة الطرفين ناجية *** مشنانة حملت اوصال مشناق.

فقال : لمن هذا ؟ كتبه فقال للذي نذمه ، ونعيب شعره ، أبي علي الحكمي! قال : أكتم علي ، فوالله لا أعود لذلك أبداً[2]

يتضح من هذا النص أن ابن الأعرابي – وهو أشد الرواة تعصباً للقديم كراهية لمذهب المحدثين – كان يستجيد شعر أبي نواس ، ولكن حبه للقديم يغلب عليه ، وهذا معناه ان موقفه من شعر أبي نواس كان فيه كثيرا من التسامح ، لأنه كان يشعر في قرارة نفسه بقوة ولذة ، لذا قال :"أكتم علي ..."

وهكذا عني الحصري بإيراد الأخبار التي تتعلق بالقدماء والمحدثين ، دون أن ينتصر لأي من الفريقين ، لذا لم يعط رأيه بصراحة في هذه المسألة ، وإنما وقف منها موقفاً وسطاً ، فكسب ثقة المتعصبين للقديم وصداقة المحدثين."[1]

وأما ابن شرق القيروا ، فقد درس قضية القديم والحديث في رسالته (مسائل الانتقاد) ، يقول :" يحفظ من شيئين ، أحدهما : أن يحملك أجلالك القديم المنكور على العجلة باستحسان ما نسمع له، والثا : أن يحملك إصغارك المعاصر المشهور على النهاون بما أنشدت له ، فغن ذلك جور في الأحكام ، وظلم من الحكام حتى تمحص قولبهما فحينئذ تحكم لهما ، أو عليهم "[2]

يشير ابن شرف إلى مسألة الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ويدعوا إلى جعل الجودة والإحسان مقياساً للنقد سعياً وراء الإنصاف في الحكم على الفريقين ، وقد أخذ رأيه عن ابن قتيبة الذي وقف من هذه المسألة بصراحة ، إذ قال : "(...) ولا نظرت إلى المتقم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين وأعطيت كل حظه ، ووفرت عليه حقه ، فإ رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، و لا عيب له عنده إلا أنه في زمانه ، أو أنه رأى قائله".[3]

بيد أن ابن رشيق –سلفاً – أن ذلك أمر صعب ، فقد جبل الناس منذ القديم على تمسكهم بسيرة القديم ، ونفورهم من المحدث ، بدليل قوله تعالى :

(إنا وجدنا آباءنا على أمة)[4]وقوله تعالى : (بل نتبع ما وجنا عليه آبانا)"[5]ومرد هذا – في رأي ابن رشيق – يعود إلى طبائع الناس وسجاياهم ، وقد تميز ابن شرف عن هذا الموقف بقوله [6]:

أغري الناس بامتداح القديم *** وبذم الجديد غير ذميم .

ليس إلا لأنهم حسدوا الحبسي *** وروفوا على العظام الرميم .

وقال في المعنى نفسه[1] :

قل لمن لايرى المعاصر شيئاً *** ويرى للأوائل التقديما

إن ذاك القديم كان جديداً وسيغلوا هذا الجيد قديماً.

يظهر أم ابن شرف لم يخرج في معا أبيانه عن رأي ابن قتيبة الذي يقول : إن الله جعل كل قديم حديثاً في عصره (...) فقد كان جديد والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين (...) ثم صار هؤلاء القدماء عندنا بعد العهد منهم ، وكذلك يكون بعدهم لمن بعدنا (...)[2] ويخلص ابن شرف إلا أن القدماء يمكن أن يصيبوا ، كما يمكن أن يخطئوا هم أيضاً ، ويستشهد بامرئ القيس الذي نجد في شعره :"أعداد كثيرة من النقص والبخس، منها دخوله منطفلاً على كره دخوله عليه ، ومنها قول غيرة له:

ويوم دخلت الخذر عنيزة *** فقالت لك الويلات إنك مرجلي.

وهي قولة لانقال إلا للخسيس ، ولا يقابل ما رئيس.

كما نعرض ابن شرف لدراسة شعر المحدثين ، وأثبتلهم سقطات في أشعارهم، فهذا بشار" تنباين طبقات شعره ، فيصعد كثيرها، ويهبط قليلها كثيراً .كذلك الشأن بالنسبة لأ تمام والبحتري ، إذا سمعت جيدهما، كذبت أن رديئهما لهما وإذا صح عندك أم ذلك الردي لهما، أنسمت أن جيدهما لغيرهما والذي يلاحظ على ابن شرف أنه نعرض لدراسة أ تمام والبحتري بصورة مقتضبة، فقد لخص رأيه فيهما في عبارات قصار دون ان ينحيز إلى جانب أحد منهما ، وإنما نوسط في الحكم عليهما.

وهكذا درس بن شرف قضية القديم والحديث ، ونقد شعر القدماء والمحدثين، لكن نقده كان نقداً منحلاً بسيراً ذهب فيه ابن شرف إلى النسوية بين مذهب القدماء، وبين مذهب المحدثين.

ونعرض ابن رشيق لدراسة قضية القديم والحديث، وخصهما بباب مستقل في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) أستهله بقوله:"كل قديم من الشعر فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله[3]، ثم ينتقل ابن رشيق – بعد ذلك – إلى عرض آراء الذين كانوا يتعصبون للقديم وينتصرون له، أمثال : أ عمرو بن العلاء، وابن الأعرا وغيرهم –ثم نعرض ابن رشيق إلى فئة أخرى وقفت موقفاً معتدلاً من قضية القديم والحديث، وآمنت

بالنسوبة بين المنعصبين للقديم وبين المنتصرين للحديث ويمثل هذه الطائفة ابن قتيبة ، ويقول ابن رشيق:"فأما ابن قتيبة ، فقال: لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولاخص قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل قديم حديثاً في عصره"[1]ويدعم ابن رشيق رأيه هذا بالإستشهاد ببيتين من الشعر لأ تمام

: فلو كان يغني الشعر أنناه ما قرت *** حبا ضك منه في العصور الذ واهب

ولكنه صوب العقول إذا نجلت *** سحائب منه أعقبت بسحائب

ثم ينتقل ابن رشيق – بعد هذه المقدمة – إلى الحديث عن وجهة نظره في قضية القديم والحديث، ويصدع برأيه فيها كعادته ، فيقول :"وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدا هذا بناءً فأحكمه، وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه، وزينه: فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن.[2]

يشير ابن رشيق إلى قضية القديم والحديث ، فشبه الشاعر القديم بالبناء الماهر الذي يبني المنازل الفخمة ، ويشيد القصور الشامخة ، ويتقن بناءها بإحكام ،كما يشبه الشاعر المحدث بالنقاش- الذي يأ بعد البناء – فيقوم بنقش هذه الأبنية وتزيينها بالنقوش الجميلة وضع اللمسات الأخيرة لها.

وهكذا توسط ابن رشيق في قضية القديم والحديث ، فلم يتعصب للقديم لقدمه، ولم ينتصر للحديث لحداثته ، وإنما سوى بينهما ، ورأى ان العبرة إنما تكون للأجود منهما.